

## تطور النظرية النقدية من الفلسفة اليونانية إلى عصر النهضة

كفاح غسان قصير\*

(تاريخ الإيداع 15 / 8 / 2018. قبل للنشر في 12 / 11 / 2018)

### □ ملخص □

تُعد النظرية النقدية- برأي الكثير من المفكرين المعاصرين - من أهم النظريات الفلسفية والاجتماعية التي أسست لدخول عصر الحداثة وما بعده، وقد تكون نقدية الفيلسوف الألماني كانط الحجر الأساس في النهضة الأوروبية وفقاً لهذه النظرية، لذلك يحاول هذا البحث ذو الطابع الفلسفي والاجتماعي أن يسلط الضوء على أصل نشوء هذه النظرية النقدية منذ بداياتها الأولى حتى عصر النهضة، كما أنه يحاول أن يتتبع تطورها التاريخي والفلسفي والظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بها، وما هو موقف بعض الفلاسفة من هذه النظرية النقدية. بيد أن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا، هو على الشكل الآتي: هل قامت النظرية النقدية بدورها الاجتماعي والسياسي في المجتمع، وهل ساهمت في التغيير المنشود الذي تسعى إليه في المجتمع. وانطلاقاً من هذا السؤال فإنه يجب علينا أن نتتبع سيرورة تطورها التاريخي، وأن نتعرف على أهم آراء الفلاسفة اللذين قالوا بها.

الكلمات المفتاحية : الحداثة ، النظرية النقدية ، التاريخي ، النهضة .

\* (ماجستير) فلسفة غربية ، جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، دمشق ، سوريا

## The development of critical theory from Greek philosophy until the Renaissance

Kifah GH kasir\*

(Received 15 / 8 / 2018. Accepted 12 / 11 / 2018)

### □ ABSTRACT □

The theory - the opinion of a lot of thinkers contemporary - important theories philosophical, social and which established to enter the era of modernity and beyond, may be a cash German philosopher Kant cornerstone in Renaissance European according to this theory, so try this search with a stamp philosophical and social that highlights the origin of the emergence of these critical theory since the beginning the first to Renaissance, as he tries to that keeps track of their development historical and philosophical and social conditions, political and the surrounding, and what is the position of some of the philosophers of these critical theory. However, the question, which can ask here, is a form of the following: is the critical theory in turn, social, political and in the community, and do have contributed to change the desired which seeks to in the community. The basis of this question it should we have to trace the process of its development historical, and to identify the most important views of the philosophers, which they told them

**Key words:** M0dernity .Critical Theory. Historical. Renaissance.

---

\* (Master)- Dept. of Philosophy - Faculty of Arts Humanities - Damascus University - Syria.

**مقدمة:**

بما أننا نعيش في خضم معركة الوجود لا بد لنا من تساؤل مصيري وبسيط عن وظيفة الفلسفة في حياتنا، وهل يمكن أن تحمل لنا حلاً لمشكلات هذا العالم اللامتناهية، وماذا يمكن أن تقدم في ظل جنون التغيير التكنولوجي الخطير، وبعبارة مختصرة هل الفلسفة هي وسيلة الإنقاذ الأخيرة للإنسان؟ لا شك أن الإجابات على هذا السؤال كثيرة، فكل فليسوف أجاب بطريقة الخاصة والمنفردة بمنهجها ونسقتها الفلسفي والفكري، فماركيوز على سبيل المثال أعلن أن وظيفة الفلسفة هي النقد، ولا شك أن هذا النقد هو أكثر ما نحتاجه اليوم لإعادة بناء الإنسان في كليته الجديدة؛ أي كليته الإيجابية البعيدة عن تأثيرات السلب الناتجة عن الحضارة الصناعية المعاصرة.

فالإنسان لدى ماركيوز هو الأهم في هذا الوجود، وعليه أن لا يستسلم لما يقدم له كقوالب جاهزة؛ أي معطاه من الخارج؛ بل عليه أن يمتلك حساً نقدياً عالياً وذو صبغة منطقية تمكنه من إيقاظ الوعي النقدي لديه لمنعه من الوقوع في الواقع الزائف الذي تحاول السلطة - أي سلطة بكل أشكالها - فرضه من خلال مجموعة أدوات منها وسائل الإعلام والدعاية وطرق الإنتاج... الخ.

والجدير بالذكر أن الصراع بين ما يسمى بـ "الفكر الإيجابي والفكر السالب" أو بين عناصر عقلية بنائية ناظمة (منطقية) وأخرى سالبة هدامة (فوضوية) أدى بالضرورة المنطقية إلى إضعاف العناصر الإيجابية وحياديتها أحياناً وتفوقها أحياناً أخرى.

من هنا يمكن أن نتساءل عن سبل تقويم أسباب نجاح الفكر الإيجابي المنظم، وكيف يمكن أن نجعله فكراً عاماً بدل أن يكون لفئة قليلة في المجتمع، و ماهو دور النظرية النقدية التي نحن في صدها في صياغة هذا الفكر الإيجابي البناء؟ هذا ما سنحاول توضيحه من خلال تتبعنا للمسيرة التاريخية لتطور النظرية النقدية.

**1- النظرية النقدية عند الفلاسفة اليونان:**

لا شك في أن النظرية النقدية بدأت مع الأسئلة الكبرى، عندما حاول التفكير الإنساني التساؤل عن أصل الوجود، وعن الحياة والموت والنفس والخلود، ولعل التاريخ المكتوب للفلسفة حول هذه النظرية، قد بدأ مع إجابة طاليس عن سؤال هذا الوجود ويرده كل الموجودات إلى الماء، ومن بعده جاء فيثاغورث الذي بين أن العدد هو مبدأ الوجود، وبالتالي تعد هذه الإجابات بمثابة ثورة نقدية للفكر السائد في ذلك العصر.

وعلى اعتبار أن الفلسفة لا يمكن عزلها عن واقعها الاجتماعي والثقافي، وتؤسس - ولو على نحو أولي - لفكرة "الكل في الواحد" ولا يمكن أن تُغفل أو نتجاهل فكرة الصيرورة التي قال بها هيرقليطس عندما اعتبر أن (الصيرورة وحدها موجودة أما الوجود والثبات والذاتية فليست إلا أوهاماً)<sup>(1)</sup>.

وهو هنا ينفى بشكل صريح اعترافه بوجود العالم الفيزيقي وبالتالي نفي الوجود بشكل عام، والعالم الوحيد الذي أبقى عليه هو عالم التغيير المطلق، عالم الصيرورة والحركة الدائمة وقد توقف نيتشه عند هذه النقطة واقتبس عن هيرقليطس قوله: (إنني لا أرى شيئاً سوى الصيرورة. لا تتخذوا! إنه لتأثير نظركم القاصر، ولا علاقة لذلك بجوهر الأشياء، إذا كان يتراءى لكم في مكان ما إنكم ترون أرضاً صلبة على بحر الصيرورة والموجودات الزائلة، إنكم تستعملون أسماء

(1) ستيس، وولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد مجاهد، دار الثقافة، القاهرة، 1984، ص70.

الأشياء كما لو كان لها زمن ثابت، ولكن حتى النهر الذي تنزلون فيه للمرة الثانية، ليس هو نفسه كما لو كان لأول مرة<sup>(1)</sup>.

ولم يتوقف عند هذا الحد بل أشار إلى أن كل شيء يحمل عكسه أو ضده بداخله (وإذا انعدم الصراع في الشيء كف عن الوجود)<sup>(2)</sup> ولعل خبير من حمل راية النقد بعد هيرقليطس هم السفسطائيون الذين نشأت حركتهم في ظل ظروف اجتماعية وثقافية معقدة في اليونان بالرغم من تصادمهم بالفكر الهدام والسالب والذي يغلب عليه طابع الأنانية والذاتية والشخصنة، التي كانت وليدة الظروف الاجتماعية في اليونان في تلك المرحلة؛ إذ كانت اليونان عبارة عن مدن وبلدات كل منها لها قوانينها الخاصة ونظام للحكم وصراعات على كل شيء، لكنها بالتأكيد "أي الحركة السفسطائية" تمثل ثورة فكرية نقدية، وبالتالي فهم يمثلون النظرية النقدية في عصرهم خبير تمثيل حيث هاجموا كل الصراعات الدينية والسياسية آنذاك وبينوا عيوبها من خلال النقد.

ويكاد ينفق مؤرخو الفلسفة كـ "ديورانن وستيس" أن السفسطائية تمثل نموذج الفكر السالب في العصر اليوناني، أو "الرفض العظيم" الذي كرس له ماركيز مشروع الفلسفي حيث يفهم ستيس بأنهم (اتجاه مدمر ومعادٍ للجميع، إنه مدمر للدين والأخلاقيات وأسس الدولة وكل المؤسسات القائمة)<sup>(3)</sup>.

لكن هذا لا يثبت وجهة نظر من يقول إن السفسطائية هي حركة أو اتجاه عدمي، بل إنهم اهتموا بالإنسان الفرد وأقروا بنسبية الفضائل الإنسانية وأن الإنسان هو خالق الحضارة، وأسسا ربما عن غير قصد لمرحلة جديدة من التفكير الإنساني النقدي، الذي (يكشف عن روح النقد والتحليل والجرأة في التغيير التي امتدت إلى تصورات الإنسان الأخلاقية والسياسية وذلك بعدما ظهر للناس طبيعتها الإنسانية المصطنعة التي ترجع إلى الموصفات والاتفاق)<sup>(4)</sup>.

وعلى الرغم من أن سقراط قد اتخذ موقفاً معادياً للسفسطائية ورفضه للديمقراطية السائدة آنذاك، إلا أنه أول شهيد سجله التاريخ من شهداء الفكر النقدي؛ إذ قام بنقد النمط الاجتماعي والأخلاقي والسياسي الذي كانت تعيشه اليونان في تلك الفترة، وبالتالي كان فكره يمثل مرحلة نقدية مهمة من تاريخ الفكر الأوروبي رفضاً واضحاً للديمقراطية الأثينية ورفضه لعالم الحس الوهمي الذي نعيش به لصالح عالمه العقلي الذي وضع أسسه وأكمله أفلاطون بنظريته حول المثل العقلية المفارقة للعالم الحسي المليء بالأوهام والذي كل شيء فيه زائف، ونظرته انعكست على حياته فقد عاش حياة الحكيم المتصوف الزاهد في أمور الحياة حيث طغى صوت الضمير الداخلي على أفكاره وحواراته التي وصلتنا عبر أفلاطون. من هنا يمكن القول: إن أثينا التي عاصرها أفلاطون مختلفة عن تلك التي عاصرها أستاذه سقراط على الرغم من التلاصق الزمني بين الحالتين، فقد أصبحت في عصر أفلاطون دولة فيها كل مقومات الدولة وحلٌ فيها الوعي المدني السياسي، وتقدمت فيها (فنون العمارة والشعر والدراما واتسع ميدان البحث الفلسفي)<sup>(6)</sup>.

لذلك يمكن أن نصفها بأنها تجربة ديمقراطية فريدة من نوعها، ولا يخفى على أحد أن أفلاطون قد ورث موقف أستاذه من هذا النوع من الحكم النقدي وهاجم الحكم الديمقراطي، واعتبر أن المجتمع الذي تنتجه الديمقراطية مجتمعاً فاسداً

(1) نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تر: سهيل القش، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1983، ص54.

(2) ستيس، تاريخ الفلسفة اليوناني، تر: مجاهد مجاهد، ص72.

(3) ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد مجاهد، ص107.

(4) مطر، أميرة حلمي، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، د. م، 1977، ص125.

(6) أفلاطون، مقدمة جمهورية أفلاطون، تر: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص17.

غير جدير ببناء الجمهورية الفاضلة التي كان يطمح في تأسيسها، وربما قد تكون الأحداث التي عاصرها أفلاطون لها تأثير في موقفه النقدي هذا، وأهمها هزيمة أثينا أمام اسبرطة؛ حيث أن الاسبرطيين كانوا (يركزون وجودهم في ميدان الحرب والقتال بينما ولد المجتمع الديمقراطي الأثيني روح التمدن والحضارة وابتعدوا عن فنون القتال وتجهيز الشعب للحرب وهذا دفع أفلاطون لاعتبار أن الحكم السائد في الدولة المنتصرة هو النظام المثالي للحكم. بالإضافة لانتماء أفلاطون للطبقة الأُولجارية وإعدام سقراط<sup>(1)</sup>).

أضف إلى ذلك اعتقاد أفلاطون الراسخ بأن المجتمع المثالي الذي يطمح لتجسيده على أرض واقعه اليوناني يحتاج لحكم استبدادي للوصول إليه، والاستبداد هنا قد يكون للقانون أكثر منه لشخص الحاكم. وهنا أيضاً تأثير واضح بأستاذه سقراط الذي رفض أن يهرب من قوانين مدينته وفضل تجرع السم على أن يخالف القانون.

أما تلميذه أرسطو فلم يكن يتفق معه في كثير من المواضيع الهامة، وكان أكثر تصالحاً مع الواقع وابتعاداً عن المثالية؛ حيث كان الفيلسوف الرسمي للإمبراطورية المكدونية، وكما يرى أرسطو فإن الديمقراطية تقوم على افتراض وهمي من المساواة، ففكرة المساواة تتحقق عندما يتساوى الجميع أمام القانون، وهنا نلاحظ أنه لم يخرج في إطاره العام عن أفلاطون وسقراط ولكنه يختلف معهم في التفاصيل، فهو يرفض تقسيم أفلاطون لفئات المجتمع وأيضاً يرفض أن تحدد الدولة نوع العمل الذي يناسب كل شخص ومنح الجميع حق المشاركة في الشؤون العامة للدولة. لكن يبقى للدولة وظيفة مهمة هي قيادة الجماهير الغوغاء متقلبة الأهواء التي إذا لم تجد من يقودها ستخل بالنظام العام للدولة وتنتشر الخراب والفساد.

من هنا أن القارئ لأراء أرسطو في السياسية لا بد أن يلاحظ أفكاره النقدية لمبادئ الديمقراطية والأولجارية؛ إذ يرفض النظام الديمقراطي الذي يقوم على مشاركة الجماهير من كافة الطبقات في الحكم، وأيضاً ينتقد حكم الصفوة لأنه قد يؤدي إلى ثورة تطيح بالنظام القائم.

لذلك كان الحل الوحيد عند أرسطو هو جمع هذين النظامين معاً معتمداً على الطبقة الوسطى التي ليست فاحشة الثراء ولا الفقر، وتقوم على التوازن بين عاملين هما الكم والكيف، وقد تكون الأنظمة الرأسمالية القائمة اليوم قد طبقت مبدأ أرسطو لكن بعد عصرنته لكي يتوافق مع مجتمع الحضارة التكنولوجية المعاصرة.

وبالتالي يكون مبدأ التوازن الذي طرحه أرسطو هو أفضل طريقة للقضاء على الخوف لدى أي نظام حاكم من قيام ثورة ما أو تمرد يهز أساسات الحكم القائم؛ إذ من المعروف أن أرسطو كان يعتبر الفيلسوف الرسمي للإمبراطورية المقدونية، ولم يخف يوماً كما أستاذه أفلاطون عداؤه لعامة الناس واحتقاره للإنسان العادي واعتباره أن العبودية ظاهرة طبيعية بين الناس، وتقوم الجمهورية أو المدينة أو المدنية على أساس علاقة السيد والعبد والتي يمكن فهم علم الطبيعة عند أرسطو على أساسها والتي مهدت لفكر العصور الوسطى الذي قام على أساس جدلية السيد والعبد حتى عصر النهضة وفلسفة الأنوار.

## 2- النظرية النقدية في عنق الزجاجة:

### 1- النظرية النقدية والفلسفة الإسلامية في العصر الوسيط:

من المؤكد أن روح النظرية النقدية لها طابع مستمر عبر التاريخ تجلى تارةً عبر الفلاسفة وتارةً أخرى عبر طبقة السياسيين سواء الحاكمين أو من يحاولون خلق بيئة معارضة للحاكم، ومن المؤكد أيضاً أن هناك اعتقاد راسخ عند غالبية المفكرين الغربيين مفاده هو أن فلاسفة الإسلام لم يكونوا سوى وعاء للدين الإسلامي لكنهم لبسوا ثوب الفلسفة.

(1) أفلاطون، جمهورية أفلاطون، تر: فؤاد زكريا، ص 18-23 بتصرف.

وسواء كان هذا الاعتقاد فيه شيء من الصحة أم لا، فإنه لا بد من القول: إن الدور النقدي للفلسفة الإسلامية اتخذ طابعاً ثورياً انقلابياً في معظم الأحيان، ولا سيما في ظل طابع القداسة الذي أخفته الأنظمة الدينية السياسية على نفسها في العصر الإسلامي وتختف فيه تحت ستار العقائد الدينية، وأهم ما يميز هذا الستار هو أنه ذو قابلية عجيبة على التلون بما يتناسب مع الحاكم وسياسته سواء كان ظالماً أم عادلاً.

ومن هذا المنظور لا نستطيع حصر وقت معين لبداية الفلسفة العربية الإسلامية، لكن من الواضح أن إرهاباتها الأولى قد بدأت من خلال الجدل الحاد الذي دار بين المسلمين حول بعض المسائل الدينية كقدم العالم أو خلق القرآن أو إشكالية الذات والصفات وهذه كلها مسائل خلافية إلى يومنا هذا، ونتيجة لهذا الجدل الحاد ظهرت المعتزلة كإحدى الفرق الإسلامية الكبرى، وأهم ما تتميز به هذه الفرقة هو العقلانية الجدلية من ناحية، وقدرتها على الإتيان بحجج منطقية من ناحية أخرى، وهذا ما مكنهم من أن يؤسسوا منهجاً عقلياً لفهم آيات القرآن أباحوا فيه تفسير بعض الآيات مجازياً بما يتوافق مع العقل، وبهذه الطريقة لم يجعلوا الفلسفة خادمة للدين، بل الدين خادماً للإنسان وفقاً للعقل، فكانوا بذلك أول اتجاه فلسفي حقيقي نشأ في الحضارة الإسلامية يأخذ طابعاً نقدياً.

بيد أنه لا يخفى على أي باحث في تاريخ الفلسفة هو أن ظهور الحركات أو الفرق أو المذاهب أو المدارس الفلسفية لا بد أن يكون نتيجة لوضع ما في المجتمع، وهذا ما حصل بالضبط مع الحركة الاعتزالية التي نشأت في ظل فترة الاضطرابات التي شهدتها المجتمع الإسلامي، وقد كانت نشأتهم سواء على المستوى السياسي النظري أو على مستوى الممارسة ذات طابع نقدي، بدءاً من قضية السلطة في مجتمع ما بعد الرسول "الخلفاء الراشدين"، مروراً بالدولة الأموية، والدليل على ذلك هو أن المعتزلة وجهوا (سهام نقدهم إلى معاوية ونظروا إليه على أنه قد اغتصب سلطة الخلافة من الحسن واعتدى على حق من حقوق المسلمين وهو الشورى)<sup>(1)</sup>. وهذا ما أعطى لهم مبرراتهم الفكرية والنقدية ليقوموا بدورهم في (ممارسة نشاطهم السياسي والعسكري والفكري ضد السلطة الأموية عندما ساهموا مع الشيعة في إسقاط الحكم الأموي)<sup>(2)</sup>.

ولا ننسى أيضاً أن للمعتزلة دوراً كبيراً في مساندة العباسيين في الوصول للحكم وإعطائهم غطاء فكرياً، إلا أن علاقتهم بهم لم تستقر حتى عصر المأمون، إذ بلغ المعتزلة قمة مجدهم في ذلك العصر، كما اعتبر المأمون عقائدهم مذهباً رسمياً للدولة ومخالفتها تستوجب عقوبة قد تصل للإعدام، وبعد المأمون استمر "المعتصم"، و"الواثق" على السياسة نفسها، إلى أن جاء المتوكل فكان له رأياً آخر، فقد أخذ آراء أهل السنة وأخرج المعتزلة من السلطة وأقر قانون الدولة بأن القرآن غير مخلوق ومخالفة هذا الرأي تستوجب عقوبة من كانوا يقولون بها سابقاً.

ومن الواضح أن موقف المعتزلة من حيث البداية والرفض والتأسيس كان أشبه بموقف السفسطائية في الفلسفة اليونانية بالرغم من اختلاف الواقع الاجتماعي واختلاف الخصوم... لكن كلاهما كانا يمثلان الروح النقدية إزاء مشاكل العصر الاجتماعية والسياسية، فكلاهما أعلا من شأن العقل لدى الإنسان، وبالتالي كانت فلسفتها النقدية مرتبطة بقضايا الواقع ومناقشتها، وهذا ما جعل أفكارها النقدية لدى بعض الطبقات التسلطية تقابل بالرد العنيف.

من هنا تؤكد تجربة هاتين المدرستين أن الفلسفة يجب أن تكون بعيدة عن السلطة القائمة لأنها بحث عقلي حر يعتمد النقد أداة له، ويجب أن لا تنقيد بأي سلطات، وعلى الرغم من أن الفلاسفة العرب حاولوا تقديم فلسفتهم بمصطلحات وغطاء ديني إلا أنهم لم يسلموا من التكفير والتهديد والنفي، فقد (تعرض المعتزلة في عهد المتوكل لكافة ضروب القهر

(1) عمارة، محمد، المعتزلة والثورة، دار الهلال، د. م، 1984، ص 67-68.

(2) عمارة، محمد، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1972، ص 166-167.

والتنكيل ووعولوا على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ولم تكن تقبل شهادتهم أمام القضاء<sup>(1)</sup>، ولم يتوقف الأمر إلى هذا الحد فقط، بل في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ميلادي أحرقت كتب ابن سينا وإخوان الصفا في بغداد، وكتب ابن رشد في إشبيلية وحرمت دراسة الفلسفة.

من هنا لم تؤد الفلسفة في هذه المرحلة أكثر من دور تقليدي من الناحية النقدية، ولا ننسى أن الغزالي أيضاً قد حارب الفلسفة والفلاسفة، فقد كان نقده للفلسفة والفلاسفة إغائياً وصرح ذلك في كتابه "تهافت الفلاسفة" أنه (لا يريد إلا هدم مذاهب الفلاسفة وإظهار ما فيها من تناقض وعجز من أجل إثبات فشل العقل الإنساني في الوصول إلى الحقيقة. [لذلك] يصنف الغزالي الفلاسفة بحسب مذاهبهم إلى ثلاثة أقسام: الدهريين، والطبيعيين، والإلهيين. ويذهب إلى القول بإلحاد المذاهب الثلاثة)<sup>(2)</sup>. وهذا كان له دوراً كبيراً في جمود التفكير الإنساني في عصره؛ إذ لم يمارس أحد الكتابة ووأدت الأفكار في رؤوس أصحابها خوفاً من التكفير والتنكيل، وهذا بالطبع ما أتاح للتفكير الديني القائم على العنف وإلغاء الآخر والقضاء عليه السيطرة على الساحة العامة في ذلك العصر.

لكن مع كل ما تعرضت له الفلسفة الإسلامية من اضطهاد إلا أنه لا نستطيع إنكار بعض البقع المضيئة في التاريخ الإسلامي ك الرازي في القرن الثالث هجري، فقد كان ذا جرأة كبيرة في طرح أفكاره النقدية - بغض النظر عن صحتها- فقد انتقد بعض آراء أرسطو في الطبيعة وما وراءها، وجعل من سقراط المثل الأعلى في الفكر النقدي، والفكرة الأم لديه أنه لم يؤمن يوماً بالتوفيق بين الدين والفلسفة، ووجد أنه هناك تعارض واضح بينهما (فالفلسفة هي السبيل الوحيد لإصلاح كل من الفرد والمجتمع أما الأديان فهي مدعاة التنافس والصراع بين البشر)<sup>(3)</sup>، كما لم يعترف الرازي بالمعجزات النبوية، واعتبر أن البشر جميعاً متساوون، ويُعد نقد الرازي هذا هو أعنف نقد وجه للدين في العصر الوسيط وقد امتدت آراءه إلى أوروبا.

ومع ذلك كان خصوم الرازي كثر حتى من الفلاسفة وأهمهم ابن سينا الذي ناصبه العداء دون سبب ظاهر، وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنه لم يسلم أحد ممن اشتغلوا في الفكر النقدي والفلسفة من النقد حتى الغزالي ذاته أدانه ابن تيمية ولم يشفع له تكفيره للفلاسفة، ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: إن (الشخصية الوحيدة التي تستطيع أن نقول أنها متوحدة إلى حد كبير، هي شخصية محمد بن زكريا الرازي، لا لأن الوسط الذي كان يحيا فيه كان بطبعه مضاداً لتأثره به وانتشار أفكاره، بل لأنه كان نسيح وحده، وكان يتقدم عصره بمراحل واسعة جداً... ولهذا يجب أن يوضع كحد أعلى لتلك النزعة الإنسانية العربية)<sup>(4)</sup>.

أما ابن رشد (1126-1198م) فهو بلا شك من أبرز ممثلي النظرية النقدية في عصره؛ إذ وجه نقده للفلاسفة من قبله وللمتدينين على حد سواء، وأعلن أن (الدين يجب أن يفهم من داخل الدين وعن طريق معانياته، وأن الفلسفة يجب أن تفهم أيضاً من داخل الفلسفة وعن طريق مقدماتها ومقولاتها)<sup>(5)</sup>.

كما اعتبر أن النهج المتبع من قبل ابن سينا وبعض المتكلمين فيه نقاط ضعف كبيرة، فهو يجمع بين عالمين عالم الطبيعة وعالم ما بعد الطبيعة، عالم الغيب وعالم الشهادة، ولكي يصح الاستدلال يجب أن يستوي طبيعة الشاهد

(1) عمارة، محمد، المعتزلة والثورة، ص 74-75.

(2) خليف، فتح الله، فلاسفة الإسلام، دار الجامعات المصرية، القاهرة، 1978، ص 244.

(3) مذكور، إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف، مصر، ج 1، ط 2، د. ت، ص 71.

(4) بدوي، عبد الرحمن، الإنسانية والوجودية في العصر العربي، دار القلم، بيروت، 1982، ص 66.

(5) الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 4، 1985، ص 50-51.

والغائب معاً. وتكمن قيمة ابن رشد كفيلسوف تنويري نقدي هو أنه أعاد للفلسفة طبيعتها النقدية وروبقها واستقلالها العقلي، كما فرق في فلسفته بين المعرفة العقلية والمعرفة النقلية ووضع المعرفة العقلية في المرتبة العليا التي تليق بها. ويؤكد ابن رشد أنه يجب أن يؤول النقل بما يتوافق مع العقل في حال التعارض بينهما، وعلى الرغم من أنه كان أحياناً يتخذ موقفاً وسطاً بين العقل والنقل إلا أنه كان دائماً عقلياً متفكراً، وانطلاقاً من عقليته التنويرية والنقدية هذه قام المستشرقين الأوربيين والفرنسيين في دراسته لدرجة أنه أصبح ملهم مفكري عصر النهضة؛ وبينما أصبح الرشديين اللاتينيين قادة الفكر النهضوي الذي أسس لمرحلة جديدة في أوروبا، كانت الأرض العربية غارقة بالدماء من أجل الصراع على السلطة، إذاً فالتجربة أثبتت أنه يوجد مفكرين وعلماء وفلاسفة تنويريين ونقديين، لكن الأهم هو وجود مجتمع حاضن لهم ومنتقل لأفكارهم النقدية التي تدعو لتغيير ما أو لانقلاب جديد للقيم السائدة.

وأخيراً ما نريد أن نقوله هنا هو أن المتدينين نجحوا إلى حد ما بزرع وترسيخ فكرة تقديس القدماء والدعوة للعودة للتاريخ بدلاً من مواكبة التطور، وهذا ما وجدناه واضحاً عند أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة إضافة لابن تيمية وابن عبد الوهاب وكل الدعاة المعاصرين الذين تحولوا إلى موظفين يقبضون رواتب عالية لقاء إقناع الناس بعدم رفض الواقع الراهن، ورفض كل ما يأتي به العلم لكي تستمر السيطرة على هذا المجتمع من قبل الدين، لذلك فقد تم تصدير التيارات العقلية التنويرية إلى الغرب، ومن تمسك بأرضه تم دفنه وأصبحنا نعيش بالفكر الظلامي للغزالي وابن تيمية وابن عبد الوهاب وغيرهم من الاتجاهات اللاعقلية.

## 2- تطور النظرية النقدية في ظل كنيسة العصور الوسطى:

كان مقدراً على الفلسفة بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية أن تعيش في ظل السلطة المسيحية التي لم تقل سوءاً عن الأوضاع التي عاشتها الفلسفة العربية الإسلامية في العصر الوسيط، وخاصة بعد أصبحت المسيحية هي العقيدة الرسمية للدولة في القرن الرابع ميلادي، هذه العقيدة التي جعلت كل شيء تابع للكنيسة ويأتمر بأوامرها، مما جعلها تسيطر على جميع مفاصل الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية.

من هنا نجد أن الدين المسيحي القائم على الطهارة الروحية والقيم الاخلاقية بدأ يتحول إلى دين سلطة يهتم بالمظاهر الخارجية وينسى جوهر الدين القائم على مبدأ التسامح، كما أنه أخذ يقدر الأشخاص والذهب والأماكن ويلبس الله كل الصفات التي تتناسب سيطرته المطلقة على المجتمع، وهذا ما دفع هوبز إلى القول: لو تمنع انسان في اصول هذه السيطرة الكنسية العظيمة، لتبين بسهولة أن البابوية ليست إلا شبح الإمبراطورية الرومانية الميتة وقد جلست متوجة على قبر هذه الأخيرة<sup>1</sup>.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الكنيسة استغلت الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية في ذلك الوقت؛ إذ عانى الناس الفقر الشديد بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية وتبدد ثروتها، من هذا الباب وجدت الكنيسة مدخلاً لها لتثبيت حكمها وسيطرتها، من خلال الدور الذي قامت به، ألا وهو دور الوسيط بين الله والناس الفقراء، فأخذت تعطي الناس الوعود المخدرة وتقتنعهم بأنهم تخلصوا تماماً من الخطيئة والذنب، وأنها ستقدهم منها في حال امتثلوا لأوامرها ودافعوا عنها، من هنا أصبح الناس أداة طيعة بيد الكنيسة، لدرجة أنه كلما اشتد ضغط الحياة عليهم استجدوا بقوى خفية ادعت الكنيسة أنها الوحيدة التي تستطيع السيطرة عليها.

وهنا لا بد أن نذكر أهم فيلسوف في هذه المرحلة وهو القديس أوغسطين الذي كشف برؤيته النقدية عن روح اليأس والاستسلام للناس اتجاه سلطة الكنيسة في تلك الفترة، فقد عبر بأفكاره النقدية اتجاه هذا الواقع المأساوي عندما دعا

<sup>1</sup>لويس، جون، مدخل إلى الفلسفة، تر: أنور عبدالمك، ط3، دار الحقيقة، بيروت، 1978، ص55



الناس أن يشيدوا مدينة الله لتكون ملجأ لتلك الأرواح الطيبة، أما الكنيسة فهي الجماعة البشرية التي اختارها الله كي تعمل على تحقيق وبناء المدينة السماوية، وهنا نرى آثار الفلسفة اليونانية ومدينة أفلاطون الطوباوية حاضرة في ذهن أوغسطين، لكن هذا الأخير يرى أن الدولة بكامل أجهزتها يجب أن تخضع للكنيسة، لأن الكنيسة سلطة سماوية والدولة أدنى مرتبة منها، والكتاب المقدس عنده أكبر من جميع قوى العقل الإنساني، وهنا يتلاقى فكر أوغسطين مع الغزالي الذي ألغى دور العقل أمام النص المقدس.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن عصر الكنيسة لم يخلُ من المفكرين أصحاب النظرية النقدية التنويرية أمثال غاليليو ومارتن لوتر، فقد هاجم هؤلاء الكنيسة وكشفوا نفاقها وزيفها وجعلها، وانتقدوا مبادئها وقوانينها، وجاؤوا بنظريات تخالف تعاليم الكنيسة، فما كان على هذه الأخيرة إلا أن قامت بتكفيرهم وإعدامهم بحجة أنهم يحاربون العقيدة الدينية للكنيسة، ومن ثم ما قامت به الكنيسة يشبه تماماً ما قامت به بعض الفئات الإسلامية الحاكمة في عصرنا والتي تمارس سلطتها باسم الدين، وهنا يتبين لنا أن الفكر الديني السياسي ما هو إلا فكر سلطوي إرهابي (أخواني) ينفذ غاياته السياسية وفقاً لأيديولوجية دينية، ومعادياً في نفس الوقت لأي نظرية نقدية تنويرية.

### خاتمة:

يتبين لنا من خلال هذه النظرة التاريخية للنظرية النقدية، هو أن هذه الأخيرة حاولت معالجة الواقع الاجتماعي والسياسي من زاوية مختلفة ألا وهي زاوية النقد الذي يؤدي للإصلاح والتغيير، بيد أن مفهوم الإصلاح لا يروق لدى الكثير من الفئات أو الطبقات الاجتماعية التي ترى أن هذا الإصلاح ليس من صالحها لأنه يهدد زوالها وانتزاع السلطة من يدها. وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن النظرية النقدية أكثر ما لاقت عنفاً من قبل الاتجاهات الدينية الإسلامية والمسيحية ذات العقلية المتحجرة، فأصحاب هذه الاتجاهات لا يقبلون التبدل والحوار ونظرتهم أحادية الجانب، وكل ما هو جديد بنظرهم فهو مخالف للعقيدة الدينية وتعاليمها، وهذا ما يؤكد لنا أن النظرية النقدية قد مرت بمحنة عظيمة عبر مراحلها التاريخية.

لكن على الرغم من هذه المحنة وشدتها فقد شاء للنظرية النقدية بعد عناء طويل أن ترى النور، وتتخلص من سلطة رجال الدين والحكام المستبدين وتجد من يتقبلها ويتبناها فعلاً وممارسة، وما شاهدناه من تطور في بداية عصر النهضة الأوروبية وعصر الحداثة وما بعد الحداثة إلا هو تطبيقاً فعلياً لمبادئ وأفكار النظرية النقدية التي تؤمن بقدرتها على أن الواقع بكل أشكاله قابل للتغيير.

### المصادر والمراجع

- 1- أفلاطون، مقدمة جمهورية أفلاطون، تر: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.
- 2- بدوي، عبد الرحمن، الإنسانية والوجودية في العصر العربي، دار القلم، بيروت، 1982.
- 3- الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 1985.
- 4- خليف، فتح الله، فلاسفة الإسلام، دار الجامعات المصرية، القاهرة، 1978.

- 5- ستيس، وولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد مجاهد، دار الثقافة، القاهرة، 1984 .
- 6- عمارة، محمد، المعتزلة والثورة، دار الهلال، د. م، 1984.
- 7- عمارة، محمد، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1972.
- 8- مذكور، إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف، مصر، ج1، ط2، د. ت.
- 9- مطر، أميرة حلمي، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، د. م، 1977.
- 10- نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تر: سهيل القش، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1983.
- 11- ويس، جون، مدخل إلى الفلسفة، تر: أنور عبد الملك، ط3، دار الحقيقة، بيروت، 1978.